حجاجيَّة الصورة الحسيَّة في آيات الإيمان والكفر
"سورة البقرة أنموذجًا"

د/ لطيفة بنت إبراهيم الضالع (*)

الملخص:

حاولت هذه الدراسة الكشف عن المواطن الحجاجية للصورة البلاغية، وذلك بالوقوف على أشكال الصورة الحسية حسب تمظهرها في آيات الإيمان والكفر في سورة البقرة، وما اشتملت عليه من خصائص أبرزت أهم مميزات الصورة الحسية ودورها في الإقناع والتأثير، واعتمدت الدراسة المنهج الحجاجي البلاغي في دراسة الصورة الحسية في المدونة للكشف عن دورها في تقريب المعنى للمتلقي وإبصاره بالحجة عن طريق إثارة مخيلته الحسية، وقد توصلت الدراسة إلى بعض النتائج أهمها: إبراز الدور الحجاجي للصورة الحسية وأثرها في استشعار المتلقي للمعنى والدفع به إلى العمل بمقصودها، كشفت عن أشكال الصور الحسية التي وردت في المدونة ودورها في نقل المعاني المبهمة بصورة حسية مؤثرة بالعواطف ومروضة للمشاعر تدفع بالعقل نحو الإقناع والإفهام، كما وقفت على خصائص الصورة وأظهرت ما للصورة الحسية من خصائص ذات أبعاد جمالية وإقناعية فعالة في استمالة المتلقي والتأثير فيه.

(*) الأستاذ المساعد بجامعة القصيم – المملكة العربية السعودية.

Summary

This study attempted to reveal the argumentative aspects of the rhetorical image by examining the forms of sensory imagery as manifested in the verses of faith and disbelief in Surah Al-Baqarah. It highlighted the key features of sensory imagery and its role in persuasion and influence. The study adopted the rhetorical argumentative method to analyze the sensory imagery in the text, aiming to uncover its role in conveying meaning to the audience and enlightening them with arguments by stimulating their sensory imagination. The study yielded several findings, the most important of which are: it highlighted the argumentative role of sensory imagery and its impact on the audience's perception of meaning, urging them to act according to its intent, and It unveiled the forms of sensory imagery present in the text and their role in conveying ambiguous meanings in an emotionally impactful manner, guiding the intellect toward persuasion and understanding. It also examined the characteristics of imagery and demonstrated the sensory image's properties, emphasizing its aesthetic and persuasive dimensions, which effectively attract and influence the audience.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا ونبينا محمد صل الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

لقد انصب اهتمام الدراسات البلاغية الحديثة بآليات الاقناع والتأثير وردت الاعتبار إلى البعد الحجاجي البلاغي الذي يتوسل بكل ما من شأنه الدفاع عن الفكرة والدفع بالمتلقي إلى الاقتناع والتسليم والإذعان لها ومن ذلك اعتماده الصورة الحجاجية التي تعد من أهم التقنيات التي يتوسل بها المحاجج لأجل إثبات الفكرة أو نفيها والتبرير لذلك تبريرًا حجاجيًا.

وخير ما يمثل هذا الجانب الحجاج بالصورة في القرآن الكريم والذي نزل للناس كافة على اختلاف مشاربهم مخاطبًا العقل والوجدان معًا فقد أعطى العقل حظه من الحكمة والموعظة وأعطى النفس حظها من التشويق والتحذير قاصدًا بذلك النفاذ إلى عقول البشرية واختراق عواطفهم بأساليب بلاغية تأثيرية إقناعية، فقد جاء بالمعاني المبهمة بصورة حسية تلامس الوجدان ويستطيع العقل إدراكها بغية الاقناع بالحجة الواضحة وترويض المشاعر النافرة والتأثير بالأفكار الجامحة بما يقع تحت الحواس.

لذا وقع الاختيار على آيات الإيمان والكفر في "سورة البقرة أنموذجًا" لكونها ميدانًا خصبًا للتطبيق ومحلًا للتحليل والنظر إذ أنها تمثل الغاية التي نزل القرآن الكريم من أجلها وجاءت مدعومة بصور حجاجية تدفع بالمتلقي إلى الإذعان والتسليم.

ومن هنا تتجلى أهمية هذه الدراسة إذ أنها تنصب على آيات الإيمان والكفر في سورة البقرة التي يبرز فيها دور الحجاج بالصورة من جانب بلاغي وإن كان هناك دراسات اهتمت بالصورة الحجاجية يمكن للدراسة أن تفيد منها من أبرزها بحث بعنوان "الصورة الحجاجية في ضوء البلاغة الجديدة" للدكتور جميل

حمداوي، ودراسة أخرى بعنوان " الأبعاد الحجاجية للصورة البيانية في الخطاب النبوي الشريف" لبعداش علي، وبحث بعنوان " القيم الحجاجية للصورة التشبيهية في الخطاب القرآني صورة الدنيا أنموذجًا" للدكتور بلقاسم محمد، ومن الدراسات أيضًا "حجاجية الصورة الفنية في الخطاب الحربي خطب الإمام علي أنموذجًا" لعلي عمران، كما أن هناك دراسة للصورة الحجاجية في الباب الثالث ضمن كتاب الدكتور عبدالله صولة "الحجاج في القرآن من خلال خصائصة الأسلوبية" بيد أن هذه الدراسات تلتقي مع هذا الدراسة في كونها اهتمت بالصورة الحجاجية بوجه عام وتفترق عنها في كونها لم تتناول حجاجية الصورة الحسية في آيات الكفر والإيمان في سورة البقرة على وجه الخصوص إذ أننا لم نظفر بدراسة اهتمت بهذا المجال.

أما الدوافع لاختيار هذا الموضوع رغبة الباحثة لإيجاد إجابة شافية لبعض التساؤلات وهي:

ما المقصود بالصورة؟ وما دورها في الحجاج؟ وما أصناف الصورة الحجاجية بناء على شكلها الحسي في آيات الإيمان والكفر في سورة البقرة؟ وما خصائص الصورة الحسية الحجاجية القرآنية؟

وتروم الدراسة للوقوف على معنى الصورة، والكشف عن دورها الحجاجي، وإبراز آليات الأشكال الحسية التي ظهرت فيها الصورة الحجاجية في آيات الإيمان والكفر في سورة البقرة والكشف عن دورها باعتبار أن وظيفة البلاغة الاقناع بالحجة مع التعرف على أبرز خصائص الصورة الحسية القرآنية باعتباره أنموذجًا حجاجيًا راقيًا يحتذى.

وبما أن الحجاج أضحى مطلبًا في كل عملية تواصلية تستدعي الإفهام والاقناع والتأثير ستستنير الدراسة بمنهج التحليل البلاغي الحجاجي، وذلك بالوقوف على

الأشكال الحسية التي ظهرت فيها الصورة الحجاجية في آيات الإيمان والكفر في سورة البقرة والباعثة على إذعان المتلقي وتسليمه.

مخطط البحث: قُسم البحث إلى مقدمة وتمهيد وخمسة مباحث خُصص التمهيد لعرض مفهوم الصورة ودورها الحجاجي، أما المبحث الأول فسيتناول الحجاج بالصورة البصرية، وأما المبحث الثاني فسيتطرق للحجاج بالصورة السمعية، أما المبحث الثالث فسيتناول الحجاج بالصورة الذوقية، وأما المبحث الرابع فسيستعرض الحجاج بالصورة اللمسيّة، أما المبحث الخامس فسيركز على خصائص الصورة الحسية في مدونة الدراسة، ومن ثم الخاتمة وسيذكر فيها أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

التمهيد

أولًا: تعريف الصورة لغة واصطلاحًا

وردت مادة (صَوّر) في عدة مواضع في القرآن الكريم، جميعها جاء بمعنى الخلق والإيجاد والتركيب والتشكيل، منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾[2]، فالمصور من أسماء الله الحسنى وهو الذي صوّر جميع الموجودات ورتبها، فأعطى كلّ شيء منها صورة خاصة، وهيئة منفردة يتميز بها على اختلافها[3].

والتصوير في اللغة مشتق من الفعل (صوّر) أي: جعل للشيء صورة مجسّمة، وصور الأمر: أي جعل له وصفًا يكشف عن هيئته، وتصورت الشيء: تكونت صورته وشكله، وتخيلته واستحضرت صورته في الذهن[4].

والصورة عند الراغب الأصفهاني هي: "ما ينتقش به الأعيان، ويتميّز بها غيرها، وذلك ضربان: أحدهما محسوس يدركه الخاصّة والعامّة، بل يدركه الإنسان وكثير من الحيوان، كَصُورَةِ الإنسانِ والفرس، والحمار بالمعاينة، والثاني: معقول يدركه الخاصّة دون العامّة، كالصُّورَةِ التي اختصّ الإنسان بها من العقل، والرّويّة، والمعاني التي خصّ بها شيء بشيء"[5].

---

(1) سورة الحشر: آية ٢٤.

(2) سورة الأعراف: آية ١١.

(3) انظر: لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، ٤/ ٤٧٣.

(4) انظر: المرجع السابق، ٤/٤٧٣، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأبي العباس الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت، د.ط، د.ت، ١/ ٣٥٠، مادة (صور).

(5) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاتي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ، ص٤٧٩.

أما عن الصورة في الاصطلاح فقد كان الجاحظ أول من استعمل مصطلح الصورة في النقد العربي القديم، حينما قال: "والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجميّ والعربيّ، والبدويّ والقروي، والمدنيّ. وإنّما الشأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحّة الطبع وجودة السّبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النّسج، وجنس من التّصوير"(١)، وفي كلام الجاحظ إشارة إلى أن ما يسوغ تقديم شعر على آخر هو التصوير ويَقصد به التجيسم، وإخراج المعنى بصورة محسوسة.

وممن اهتم بالصورة وأعطى لها مفهومًا مقاربًا لمفهومها المعاصر عبد القاهر الجرجاني حينما ذهب إلى أن التصوير يسمو بالمعنى ويزيد في قيمة الكلام، ويرفع من قدرة، وإن كان غير شريف في مادته، وإن جل محاسن الكلام، إن لم تكن كلها متفرعة عن التشبيه، والتمثيل، والاستعارة، وراجعة إليها وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها(٢)، مؤكدًا على أن " سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة"(٣)، فالصورة عنده لها وظيفتها الجمالية والنفسية والذهنية، وتعلب دورًا في التلاحم بين المبنى والمعنى، ومن شأنها أن تقدم مبنى على آخر وإن كان المعنى واحد، وهو بذلك يقرر كلام الجاحظ.

أما عن الصورة عند المحدثين من النقاد والأدباء العرب فقد جاء في تعريفها بأنها: " تركيبة عقلية، تنتمي في جوهرها إلى عالم الفكرة، أكثر من انتمائها إلى عالم

---

(١) الحيوان، لعمر بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٩٦٩م، ٣/١٣.

(٢) انظر: أسرار البلاغة، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ط١، ١٩٩١م، ص٢٦-٢٧.

(٣) دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ط٣، ١٩٩٢م، ص٢٥٤.

الواقع"[١] فالصورة عند الناقد عز الدين إسماعيل بمثابة مرآة تعكس مشاعر الكاتب وأحاسيسه وانفعالاته أكثر من كونها عاكسة لواقعه.

أما جابر عصفور فيرى أن الصورة مجرد وسيلة لتقديم المعاني بصورة مؤثرة، ولكنها لا تغير المعنى نفسه وإنما التغير يطرأ على قالب تقديمه وذلك عندما حصر أهميتها بقوله: " طريقة خاصة من طرق التعبير، أو وجه من أوجه الدلالة، تنحصر أهميتها فيما تحدثه في معنى من المعاني من خصوصية وتأثير"[٢].

أما الدكتور محمد العمري فينقل عن أوليفي ريبول تعريفه للصورة بقوله: هي "إجراء أسلوبي، أي: طريقة في التعبير، حرة ومقننه"[٣]، ويقصد بقوله حرة أي: أن المتحدث يلجأ إليها باختياره، بحيث يمكنه التعويض بغيرها، أما قوله مقننة فيقصد أن كل صورة تنتمي إلى نسق، أو بنية معروفه يمكن نقلها من محتوى إلى آخر مثل الاستعارة والكناية[٤]، فالصورة عنده يمكن أن تكون حجة أو عنصرًا حجاجيًا على الأقل.

أما الولي محمد فقد ركز على الصورة الشعرية خاصة، حيث توحي كلمة الصورة عنده "بالشيء الملموس معبرًا عنه باللغة"[٥]، ويرى أن الصورة زائدة على المعنى المراد توصيله، وهي عنده مرتبطة بالحس الذي يعتبره جوهر الصورة الشعرية[٦].

---

(١) التفسير النفسي للأدب، عز الدين إسماعيل، مكتبة غريب، القاهرة، د.ط، د.ت، ص٥٨.

(٢) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٣، ١٩٩٢، ص٢٣٢.

(٣) البلاغة بين التخييل والتداول، محمد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب، ط٢، ٢٠١٢م، ص٢٣.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص٢٣.

(٥) الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، الولي محمد، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ص١٩.

(٦) المرجع السابق، ص٢٠-٢١.

ثانيًا: دور الصورة في الحجاج

تعد الصورة من أهم وسائل التأثير التي يتوسل بها الخطاب الحجاجي لإقناع المتلقي واستمالته، وهي -كما تتبعها د.عبدالله صولة عند بعض المفسرين والبلاغيين القدامى- قائمة: "على الاستدلال بمعنى على معنى، وإثبات معنى مدعى بواسطة معنى هو بمثابة البينة"(١).

كما يرى أن القدماء اعتبروا الصورة ناتجة عن عملية التعويض، التي يعوض فيها المجاز عن الحقيقة، فهي تعويض للمعنى، وإخراج له في صورة حسيه، ومعنى هذا أن الصورة عندهم قائمة على الاستبدال، وقد ربطوا بين الاستبدال والاستدلال، بداعي أن الصورة الحسية قادرة على التأثير والإقناع(٢).

ويرى د. صولة أن استخدام المجاز يؤدي إلى ظهور المفهوم بالضرورة، لأنه دلالة لازمة على المعنى المراد، وهذا المفهوم مكون بلاغي، قد يكون مرتبط بالمقام والسياق، وقد يكون منغرسا في كيان الملفوظ نفسه، وليس له معنى محدد، والمتلقي هو المسؤول عن استخراجه(٣). كما يرى أن شكل الصورة عامة والصورة القرآنية خاصة يحتوي دائما على محل شاغر هو تاج الحجاج ومناطه، ودور المتلقي هو ملء هذا الشاغر من خلال المفهوم، وعلى هذا فإن الصورة كلام، نصفه وهو (المصرح به) من صنع النص أو المتكلم، ونصفه وهو (الضمني) من صنع المتلقي، وهو الوضع الذي يكفل للصورة قدرتها الحجاجية(٤).

---

(١) الحجاج في القرآن من خلال أهم الخصائص الأسلوبية، عبدالله صوله، دار الفارابي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧م، ص٤٩٠.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٤٨٢-٤٨٩.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٥٥٧-٥٥٨.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص٥٦٢-٥٦٣.

وعلى هذا يمكن أن تعد الصورة في الحجاج وسيلة من وسائل الاستدلال الحجاجي، إذ أن الحجاج يستغل كل طاقات اللغة التي من شأنها أن تصنع هذا الاستدلال بصورة ثرية ومقنعة.

فالصورة البلاغية –كما يرى بيرلمان وتيتكا– ليست مجرد تنميقات وزخارف يزين بها الخطاب. بل لها فاعلية حجاجية من شأنها أن تؤثر في المواقف وتدفع إلى تغييرها(١).

وقد أشار أحد البلاغيين إلى أهمية الصورة في الاستراتيجية الحجاجية بحكم طابعها المجازي حين وضح دور المجاز في الحجاج بقوله: "يخلق المعنى، ويصدم كل من لا يشاطر المتكلم وجهة نظره، وهو إلى ذلك طريقة التعبير عن الأهواء والانفعالات والمشاعر التي هي صور من الانسان، مثلما يكون المجاز صورة من الأسلوب"(٢).

ومن طرق التصوير التي تناولها دارسو الحجاج وأفاضوا في الحديث عن دورها الحجاجي الاستعارة، وقد أشار بعضهم إلى ما تتضمنه من طاقات حجاجية بقولهم إنها: "تهدف إلى إحداث تغيير في الموقف الفكري، أو العاطفي للمتلقي"(٣)، فالاستعارة عندهم "تدخل ضمن الوسائل اللغوية التي يستغلها المتكلم بقصد توجيه

---

(١) انظر: chaim pereleman: l,empire rhetorique et argumentation, librairie philosophique j.Vrin 1977 p. 13. ، "نقلًا عن: بلاغة الإقناع في المناظرة، عبداللطيف عادل، منشورات ضفاف، بيروت–لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، دار الأمان، الرباط، ط١، ٢٠١٣م، ص٩٢.

(٢) البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ماير، محمد علي القارصي، مقال ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إصدار فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف: حمادي صمود، كلية الآداب، منوبة–تونس، ١٩٩٩م، ٣٩٧.

(٣) اللغة والخطاب، عمر أوكان، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، د.ط، ٢٠١٠م، ص١٣٤.

خطابه، ويقصد تحقيق أهدافه الحجاجية، والاستعارة الحجاجية هي النوع الأكثر انتشارًا، لارتباطها بمقاصد المتكلمين، وبسياقاتهم التخاطبية والتواصلية"[١].

أما د. عبدالرحمن طه فقد تتبع الاستعارة عند عبدالقاهر الجرجاني واستنتج أن مفهوم الادعاء هو قوام الاستعارة الحجاجية عنده، وانطلق من كون المجاز هو الأصل في الحجاج، لما فيه من خاصية الالتباس، وأن لا حجاج بغير مجاز، وأن نموذج العلاقة المجازية هو العلاقة الاستعارية، وأن العلاقة الاستعارية هي أدل ضروب المجاز على ماهية الحجاج[٢]، ولهذا اعتبر "الأسلوب الاستعاري أقدر الأساليب التعبيرية على إمداد الخطاب بقوة التفرع والتكاثر، فهو أشدها توغلا في العمل بالآليات التشبيهية، التي هي عماد هذا الاستدلال الطبيعي"[٣].

وخلاصة القول هي أن الحجاج لا ينظر إلى الصورة البلاغية على أنها نمطًا أدبيًا فقط، ولا ينظر إليها من ناحية جمالية فحسب، بل ينظر إليها كتقنية من تقنيات التأثير في الخطاب الإقناعي ومن هنا يبرز دور الصورة الحجاجي.

وقد استعمل القرآن الكريم التصوير بجميع أشكاله البلاغية " التشبيه، والمجاز المرسل، والاستعارة، والكناية"، مستمدًا صوره من بيئة المتلقين الثقافية والاجتماعية، ومن عناصر الطبيعة المحيطة بهم، وغيرها مما هو قريب من حياتهم وتدركه أذهانهم.

والتصوير في القرآن الكريم يخضع لأكثر من طريقة في إيصال المعنى بفضل ثرائه ووفره مادته، وقد اختارت الدراسة الوقوف عند الصور الحجاجية المتعلقة بالحواس سواء أكانت بصرية، أو سمعية، أو ذوقية، أو شمية، أو لمسية.

---

(١) اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٦م، ص١٠٨.

(٢) انظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٩٨م، ص٢٣١-٢٣٣.

(٣) اللسان والميزان، طه عبد الرحمن، ص٢٩٥.

ومن هذا المنطلق سيتم النظر إلى الصورة البلاغية في آيات الإيمان والكفر في سورة البقرة في مقامها الحجاجي الذي يُبرز دورها التأثيري وقدرتها على الإقناع مع عدم إغفال مالها من أثر جمالي.

المبحث الأول

الصورة البصرية

وهي الصورة الحسية التي يترجم من خلالها للمعاني والأفكار، لتكون أعمق أثرًا في ذهن المتلقي وأقوى في إيقاظ شعوره، لاسيما إذا جاءت مدعمة بالمثيرات البصرية من حركة ولون أو غير ذلك، وذلك لما تتمتع به حاسة البصر من قدرة فائقة لربط الإنسان بمحيطه الخارجي وإدراك كل ما يقع تحت نظره وهذا ما جعل الصورة البصرية أبلغ في إنتاج المعنى وأقوى حضورًا في الكلام.

وقد تكرر هذا اللون من الصور الحسية في مدونة الدراسة خاصة وأنها تستثير المخيلة البصرية في إثبات العقائد ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾[1]، لقد استخدم القرآن الكريم الصورة اللونية لإثبات الفرق بين الإيمان والكفر فستعار للإيمان النور "اللون الأبيض"، واستعار للكفر الظلمات "اللون الأسود" وقد استمد هذين اللونين مما يقع تحت حاسة البصر ومما تواطأ العرب على دلالتيهما فالبياض مرتبط لديهم بالأمور الإيجابية والسواد مرتبط بالأمور السلبية وما يؤكد ذلك تشاؤمهم من الغراب لسواد لونه، وربط الإيمان والكفر بهذين اللونين جاء بمثابة إقامة الحجة عليهم وضمان نجاعتها لكونها مستمدة من طريقة تفكيرهم فهي غير قابلة للأخذ والرد.

وفي ذلك إعمال للنظر فيما يعود بالنفع على المتلقي إذ أن الذهن يتأثر بما يقع تحت المحسوسات أكثر من المعنويات وقد أشاد صاحب تلخيص البيان بهذه الصورة بقوله: "وذلك من أحسن التشبيهات لأن الكفر كالظلمة التي يتسكع فيها الخابط ويضل القاصد، والإيمان كالنور الذي يؤمه الجائر ويهتدي به الحائر،

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٥٧.

وعاقبة الإيمان مضيئة بالنعيم والثواب، وعاقبة الكفر مظلمة بالجحيم والعذاب"[١]، ومن هنا يكمن البعد الحجاجي للصورة المستمدة مما تقرر في نفوس المتلقين وسيطر على تفكيرهم فعاقبة الإيمان مضيئة مشرقة وعاقبة الكفر وخيمة مظلمة "تسد البصر وتمنع الرؤية"[٢] ولد.عبدالله صولة وقفة رائعة يستعرض فيها أثر هاذين اللونين على المتلقين للقرآن الكريم حيث قال: لما كان هذان اللونان مرتبطان عند العرب بالأمور الإيجابية والسلبية جاء استخدام القرآن الكريم لهما في أكثر المواضيع غموضًا وأشدها عرضة للإنكار من قبل المكذبين بيوم الحساب والعقاب، فالسواد والبياض مقترنان بالنور والظلمة في القرآن الكريم وهو اقتران حاصل بين كلا الطرفين في معتقدات العرب وغير العرب[٣].

وقد تم الاعتناء بالجوانب اللغوية المساهمة في إبراز حجاجية الصورة، ومن ذلك التعبير بالفعل المضارع "يخرجهم- يخرجونهم" الدال على الدوام والاستمرار فالذين اختاروا الإسلام يزدادون توغلًا ويقينًا فيه يومًا بعد يوم والذين اختاروا الكفر على الإسلام يزدادون ضلال يومًا بعد يوم ولأجل هذا الازدياد المتجدد في الأمرين وقع التعبير بالفعل المضارع -كما ذكر صاحب التحرير والتنوير-[٤]، وهو ما يضفي على الصورة صفة الديمومة، ويعطيها طابع الحركة فيجعلها صورة بصرية حركية حية مستمدة من واقع المخاطبين وطريقة تفكيرهم.

---

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي، تحقيق: د. علي محمود مقلد، منشورا دار مكتبة الحياة، بيروت-لبنان،ط٤، د.ت، ص٣٩.

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: مصطفى حسين أحمد، دار الريان للتراث، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، ٧٥/١.

(٣) انظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم الخصائص الأسلوبية، عبدالله صوله، ص٥٣٥.

(٤) التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ط، ١٩٨٤هـ، ٣٠/٣.

ومما يدعو إلى التأمل في حجاجية الصورة التعبير بصيغة المفرد "النور" لدلالة على أن طريق الحق واحد غير قابل للشك والريب، بالمقابل عبر "بالظلمات" بصيغة الجمع للدلالة على أن طرق الضلال متعددة وهي دروب شائكة تنتهي بأصحابها إلى غياهب الكفر والضلال.

وتكمن حجاجية هذه الصورة في تحميل المتلقين للقرآن الكريم مسؤولية استخلاص العبرة، وتحكيم العقل لا الهوى والشهوات في اتباع الحق والهدى، فدروب الكفر تيه وظلمة وغربة، ودروب الإيمان طمئنينة ونور وهداية.

وبعدما بين سبحانه وتعالى أنه ولي الذين أمنوا وأن الكافرين أولياءهم الطاغوت بين مثل ما ينفق الذين أمنوا في سبيل الله ومثل ما ينفق الذين كفروا في سبيل الطاغوت حيث قال في حق إنفاق الذين أمنوا ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1]، تستثير هذه الصورة المخيلة البصرية عند المتلقي ليتابع ويستشرف حالة الإنفاق في سبيل الله وما يلقاه المؤمن يومئذ من الأجور المضاعفة وقت الإنتاج والحصاد.

ففي هذه الصورة تشبيه للمعقول بالمحسوس حيث شبه إعطاء النفقة الخالصة لوجه الله بالحبة التي أنبتت سبع سنابل فالمشبه به هيئة معلومة تدرك بحاسة البصر وكأنها ماثلة بين عيني الناظر.

والقيمة الحجاجية للصورة تكمن في إقناع المتلقين بفضل الإنفاق في سبيل الله، والترغيب في ذلك، والحث على التسابق في الإنفاق وبذل الغالي والنفيس لوجه الله تعالى، وقدم لهم المحفز على ذلك وهو تضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف، لأنه "لو علم إنسان يطلب الزيادة والربح أنه إذا بذر حبة واحدة أخرجت له سبعمائة حبة ما كان ينبغي له ترك ذلك ولا التقصير فيه فكذلك ينبغي لمن

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٦١.

طلب الأجر في الأخرة عند الله ألا يتركه إذا علم أنه يحصل له على الواحدة عشر ومائة، وسبعمائة"[1].

وترتبط هذه الصورة للمنفقين المؤمنين بصورة أخرى تحمل نفس المعنى وتدور في نفس السياق وترمي إلى نفس الغاية في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَاٰتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[2]، وهي صورة حسية مثيرة للمخيلة البصرية تكمن حجاجيتها في الحث على الإنفاق في سبيل الله والترغيب في الامتثال لأوامر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وقال الله سبحانه وتعالى في وصف الكافرين المنفقين في سبيل الطاغوت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾[3]، وتتجلى في هذه الآية صورة مثيرة لحاسة البصر، ليستحضر المتلقي مشهد الإنفاق الخاسر وكأنه ماثل نصب عينه، حيث شبه الله سبحانه وتعالى حال الكافر الذي ينفق ماله رئاء الناس بحال الصفوان الذي يغشاه التراب فيعجب الزارع فما أن يزرع زرعه إلا ويأتي عليه وابل فيجعله صلدا أملس فيخيب أمل الزارع وتتخلل نفسه الحسرة.

وفي هذه الصورة تشبيه معقول بمحسوس ووجه الشبه فقدان الأمل والخيبة وهذا كفيل بإقامة الحجة على المتلقي وإقناعه بأن لذة إنفاق المرائي وقتيه مآلها إلى

---

(1) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، محمد بن عمر الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، ١٤٢٠هـ، ٧/٤٠.

(2) سورة البقرة: آية ٢٦٥.

(3) سورة البقرة: آية ٢٦٤.

الخيبة والحسرة، مع الحث على جعل العبادة خالصة لوجه الله لا يخالطها من ولا أذى.

وإلى جانب الصورة البصرية هناك أنواع من الصور الحسية وردت في مدونة الدراسة اهتمت بمخاطبة عقل المتلقي وإقناعه، والتأثير بمشاعره ووجدانه، منها الصور المتعلقة بحاسة السمع. وهي موضوع المبحث القادم.

المبحث الثاني

الصورة السمعية

وهي الصورة التي يترجم من خلالها للمعاني والأفكار وتهدف إلى إثارة المخيلة السمعية للمتلقي، لتصبح أكثر تأثيرًا وأقوى في لفت الانتباه لكون حاسة السمع تمثل حقة الوصل المستمرة بين الإنسان ومحيطة الخارجي، وتتضمن الصورة السمعية ألفاظًا تدل على الصوت أو السمع.

ومن الشواهد الواردة في مدونة الدراسة على هذه الصورة ما جاء في قوله جل جلاله: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[1]، ولما كانت حاسة السمع تتصدر حواس الإنسان من حيث الأهمية، إذ أنها تمكن السامع من إدارك تفاصيل محيطة الخارجي، وتحافظ على تواصله المستمر بمن حوله فهي لا تقل أهمية عن حاسة البصر من حيث التعامل مع الواقع جاءت مسلوبة في حق الكافرين المعرضين عن الحق.

لقد وظف القرآن الكريم الصورة السمعية في هذه الآية على غير المعتاد لتتناسب مع أحوال الكافرين المخالفين للفطرة السوية المعرضين عن دين الله تعالى.

وقد جوز المفسرون[2] أن يكون التشبيه على إحدى طريقتين: تشبيه حال الكافرين في إعراضهم عن الإسلام بحال الذي ينعق بالغنم، أو تشبيه حال الكافرين في إقبالهم على الأصنام بحال الداعي للغنم، وأيًّا ما كان فالغنم تسمع صوت الدعاء والنداء ولا تفهم ما يتكلم به الناعق، والكافرون لم يهتدوا بالأدلة التي جاء بها

([1]) سورة البقرة: آية ١٧١.

([2]) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ١١٢/٢، وانظر: التفسير الكبير، للرازي، ١٩٨/٥.

النبي صل الله عليه وسلم، وفي كلا الحالتين تشبيه لحالهم بحال الناعق بما لا يسمع، ومن بلاغة القرآن الكريم صلوحية آياته لمعان كثيرة يفرضها السامع، ومن هنا نشأت حجاجيه الصورة حينما تركت للمتلقي مهمة البحث والتحري عن المراد لتستثير مخيلته وتزيد من درجة إقناعه وإذعانه.

أما الغرض الحجاجي من الصورة الترهيب من حال الكافرين، والتنفير من فعلهم، والتحذير من إتباعهم، والترفع عن منزلتهم، والتحقير والاشمئزاز من مكانتهم، وفي هذا التشبيه تنبيها للسامعين أنهم إنما وقعوا فيما وقعوا فيه بسبب ترك الإصغاء، وقلة الاهتمام بالدين فصيرهم من هذا الوجه بمنزلة الأنعام، ومثل هذا المثل يزيد السامعين معرفة بأحوال الكفار، ويحقر الكافر نفسه إذا سمع ذلك، فيكون كسرًا لقلبه، وتضييقًا لصدره، حيث صيره كالبهيمة فيكون في ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه من أن يسلك مثل طريقه في التقليد فهذه الصورة بمثابة البرهان الواضح و الحجة الظاهرة على فساد أعمال الكافرين والتقليل من شأنهم.

لقد رسم القرآن الكريم حال الكافرين في هذه الآية بثلاث صور حسية اجتمعت في مقام واحد: صورة سمعية " بما لا يسمع– صم" لقد صموا عن سماع الحق، وصورة لفظية "بكم" أخرست ألسنتهم عن النطق بالحق، وصورة بصرية "عمي" عميت أعينهم عن إبصار نور الحق الذي جاء به محمد صل الله عليه وسلم، وهي صور كفيلة بجعل المتلقي يرتدع ويشمئز من حالهم ويتوخى الوقوع بما وقعوا به فلا يقبل على نفسه أن يكون في رتبة البهائم أو أقل منزلة.

وإذا كان التعبير عن المعنى بالصورة السمعية يهدف إلى تقريب المعنى وذو أثر فعّال في إيقاظ المشاعر الحسية عند المتلقي، وتجعله أسرع استجابة للتوجيه، فإن الصور الحسية الذوقية لا تقل أهمية عنها. وهي موضوع المبحث التالي.

المبحث الثالث

الصورة الذوقية

وهي الصورة التي يترجم من خلالها للمعاني والأفكار الذهنية، وتهدف إلى إثارة المخيلة الذوقية لدى المتلقي، فتجذبه إلى المعنى المراد أو تنفره منه حسب ارتباطه بالذوق والطعم المذكور، وتتميز بذكر اشتقاقات لفظية دالة على الطعام والشراب.

ويتجلى هذا النوع من الصور الحسية في سياق توبيخ الله سبحانه وتعالى لبني إسرائيل عندما قابلوا دعوة موسى عليه السلام بالعصيان ومخالفتهم لما جاء في التوراة قولًا وفعلًا في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[1]، ففي معرض محاجة الله لهم وتذكيرهم بما فعلوه مع موسى عليه السلام استعير الإشراب لبيان شدة حبهم وتعلقهم بالعجل ﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ﴾، فقد شبّه حبهم لعبادة العجل بالمشروب اللذيذ سائغ الشراب، واختار هذه الصورة المرتبطة بحاسة الذوق ليوضح للمتلقي مدى سريان حبهم للعجل وتداخله وشدة اتصاله بقلوبهم وكما هو معلوم أن الماء أشد سريان في الأجساد من غيره، ومصداق ذلك ما جاء في قول صاحب تلخيص البيان: "وهذه استعارة والمراد وصف قلوبهم بالمبالغة في حب العجل فكأنها تشربت حبة فما زجها ممازجة المشروب، وخالطها مخالطة الشيء الملذوذ"[2].

وتبرز حجاجية هذه الصورة الاستعارية من الربط بين علاقتين متولدتين من نموذجين مختلفين "المستعار، والمستعار منه" فالشراب يباشر اللسان أولًا لتحصل

---

(1) سورة البقرة: آية ٩٣.

(2) تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي، ص١١٧.

به اللذة، ثم ينتقل لبقية أعضاء الجسم ويسري بها، فحب العجل عندما باشر قلوبهم مازجه وحصلت اللذة الروحية، ولكن انتفت المنفعة الدنيوية والأخروية بقوله: ﴿ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، والتقدير: "بئسما يأمركم به إيمانكم عبادة العجل" فوجه الشبة بين العلاقتين هو حصول اللذة وانعدام المنفعة، و"المقصود القدح في دعواهم الإيمان بالتوراة وإبطال ذلك بطريق يرمي بهم في مهواة الاستسلام للحجة... ليتوصل من ذلك إلى تبكيتهم وإفحامهم"(١).

ويتعاظم الحجاج في هذه الصورة في كونها ارتبط فيها التذوق العقلي والقلبي والحسي للكفر ليستحضر المتلقي شناعة فعلهم، وعظيم تكذيبهم ويدفع به إلى الاقتناع والتسليم بفساد معتقدهم وسوء مآلهم.

ويظهر مثل ذلك في مدونة الدراسة ما جاء في سياق ذم الله سبحانه وتعالى لليهود والنصارى ومحاجته لهم عندما كتموا صفة النبي صل الله عليه وسلم في كتبهم التي تشهد له بالنبوة والرسالة مقابل أكلهم الرشوة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾(٢)، وهي صورة استعارية تلامس حاسة الذوق ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾، استعير فيها الفعل "يأكلون" لأخذ الرشوة المعبر عنها بالثمن ﴿وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ فـ" كأنهم إذا أكلوا ما يوجب العقاب بالنار كان ذلك المأكول مشبهًا بالأكل من النار. وقوله سبحانه: في بطونهم: زيادة معنى، وإن كان كل آكل إنما يأكل في بطنه، وذلك أفظع سماعا، وأشد إيجاعًا. وليس قول الرجل للآخر: إنك تأكل النار، مثل قوله: إنك تدخل النار في بطنك"(٣).

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٦١٢/١.

(٢) سورة البقرة: آية١٧٤.

(٣) تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي، ص١١٩.

فالآية ربطت أكل الرشوة بأكل النار لما بينهما من التوافق في المآل فكلاهما فظيع مهلك من لحظة تناوله باليد إلى لحظة وصوله للبطن وفي هذه الصورة تقرير بأن العقوبة في الأخرة ستكون من جنس المعصية.

لقد استثيرت في هذه الصورة المخيلة الذوقية لدى المتلقي لتسهم في صياغة المعنى وتكثف الطاقة الإقناعية لديه ليتحقق الغرض الحجاجي من عرض الصورة وهو التبشيع الشديد، والترهيب من فعل الكافرين وأكلهم الرشوة مقابل كتمان الحق والإعراض عنه، والوعيد الشديد لمن فعل ذلك.

فالصورة الذوقية كغيرها من الصور الحسية تحول المعنى والمفهوم الذهني إلى عنصر محسوس للفهم والتصور ومثلها في التعبير عن المعنى الصورة اللمسية وهي ما سيتناوله المبحث القادم.

البحث الرابع

الصورة اللمسية

وهي الصورة التي يترجم بها للمعاني والأفكار الذهنية، وتهدف إلى إثارة الخيال اللمسي لدى المتلقي، فترسم في مخيلته صورة حسية مميزة، ويضم النسيج اللغوي للصورة ألفاظا دالة على اللمس سواء أكانت أفعال أو صفات.

ولك أن تقرأ مثل هذا النوع من الصورة في مدونة الدراسة في سياق إخبار الله سبحانه وتعالى عن اليهود المعاصرين للنبي صل الله عليه وسلم والمعارضين لدعوته في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾[١]، ففي قوله: ﴿ قُلُوبُنَا غُلۡفُ﴾، استعارة على التأويلين سواء أكان غلف جمع أغلف، وهي خلقة وجبلة مغشاة بأغطية لا يتوصل إليها ما جاء به محمد صلى اللَّه عليه وسلم ولا تفقهه، فهي مستعارة من الأغلف الذي لم يختن، أو كانت غلف بالتخفيف جمع غلاف، أي قلوبنا أوعية للعلم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره[٢].

وتتجلى حجاجية الصورة اللمسية في هذا الموضع في كونها أظهرت مدى إعراض اليهود عن الرسالة المحمدية لما اتضحت لهم البينات وقامت عليهم الحجة وعجزوا عن دفعها قالوا ذلك زورا وبهتانا، ومجيء الضمير عائد على هؤلاء اليهود المعرضين ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُ ﴾ يعزز من سوء مقابلتهم للدعوة المحمدية.

ففي ثنايا هذه الصورة التي استثيرت بها المخيلة اللمسية لدى المتلقي يكمن الغرض الحجاجي إذ أنها تحمل معنى الإنكار والعناد والجحود والإعراض عن دين الحق فهي تبث في نفس المتلقي الإحساس بعدم الراحة فكأن طبقة غريبة

---

(١) سورة البقرة: آية ٨٨.

(٢) انظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري، ١/١٦٣-١٦٤.

سترت قلوبهم وأصبحت حاجز يمنع وصول الدعوة الإسلامية إليها، وهذا بدورة يحث على إقناع المتلقي بعظيم بهتانهم وسوء مآلهم فقد وجبت عليهم لعنة الله بكفرهم وهو ما يدفع به إلى الإقلاع عن صفاتهم وتهويل موقفهم، ومخالفة أهوائهم.

وورد هذا النوع من الصور كذلك في معرض حديثة سبحانه وتعالى عن أولئك الذين يستحبون العاجلة على الآجلة ويستبدلونها بها، ويشترون الكفر بالإيمان والضلالة بالهدى في قوله تعالى:﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأٓخِرَةِ﴾(١).

وقوله عز وجل:﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾(٢).

وقوله:﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾(٣).

ففعل "اشتروا" في الآيات الأنفة الذكر جميعها مستعار للاستبدال، والمعنى أنهم استبدلوا الحياة الدنيا بالآخرة، والكفر بالإيمان، والغي بالرشاد، وهي كغيرها من الصور الحسية التي تحول المفهوم والمعنى الذهني إلى عنصر محسوس أقرب إلى الفهم والتصور فمعلوم أن الشراء في حقيقته قبض باليد ولكنه جاء في الآيات الأنفة الذكر على المجاز "وفائدة اختياره في هذه المواضع تحقيق التمكن والاختيار لإقامة حجة الله على عباده، والله أعلم"(٤).

تثير هذه الصورة الحسية المخيلة اللمسية لدى المتلقي ليعمل فكرة فقد صور الذين استحبوا الكفر على الإيمان بمن فرط بالغالي والنفيس في سبيل الحصول على

---

(١) سورة البقرة: آية٨٦.

(٢) سورة البقرة: آية ٩٠.

(٣) سورة البقرة: آية١٧٥.

(٤) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري، ١٢٩/٢.

الرخيص الذي لا يعود بالنفع على صاحبة والغاية الحجاجية هي التحذير من الوقوع بالكفر وأن عاقبته الخسران المبين في الدارين.

وهي صورة منفرة من الكفر وأهله ويأتي على نقيضها صورة مثيرة للمخيلة اللمسية أيضا وورد فيه فعل الشراء ولكنها جاءت في حق المؤمنين الموحدين في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧﴾[١]، لقد استعير الشراء في هذه الآية ليصور لنا أهل الإيمان والصلاح الذين بلغوا الغاية في السمع والطاعة فيبيع الإنسان نفسه لله ويعرضها "للهلاك ابتغاء مرضاة الله أي هلاكا في نصرة الدين وهذا أعلى درجات الإيمان لأن النفس أغلى ما عند الإنسان"[٢].

وهي صورة تجمع بين الجميل وضده، إبرازا لمنجاة المؤمن الذي ابتاع نفسه لله، وخسارة الكافر الذي ابتاع نفسه للكفر واستحب الدنيا على الأخرة.

وتبدو حجاجية هذه الصورة من خلال تكثيفها للمعاني المرادة تحسينا وتقبيحا، وما صاحب ذلك من توضيح المعاني وتقريبها وما فيها من حث على الإيمان والتحذير من الكفر وتحقير أمر الكافرين المخالفين لدعوة الرسول صل الله عليه وسلم.

والغرض من تكرار هذه الصورة الحسية في أكثر من موضع في سورة واحدة للتأكيد وإيجاب الحجة على الخصم كما هو معتاد عند العرب والله تعالى أعلم.

لقد استخدم القرآن الكريم الصورة اللمسية أيضًا في محكم قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٠٧.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢/٢٧٣.

ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤﴾[1]، عندما استعيرت القسوة التي تحمل معنى الصلابة والجفاء لوصف قلوب المعاندين من اليهود المعرضين عن دعوة الأنبياء مشبها قلوبهم بقسوة الحجارة لأن "صلابة الحجر أعرف للناس وأشهر لأنها محسوسة فلذلك شبه بها"[2]، ومجيء التعبير بإثبات "الكاف"﴿ كَٱلۡحِجَارَةِ﴾ يوحي بأنها قلوب قاسية عاصية غير قابلة للتحول لا تتأثر بوعظ ولا تذكير .

وفي الصورة توظيف لاسم التفضيل "أشد" لما فيه من تفضيل للقلوب على الحجارة في القسوة ﴿كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةً﴾، ووجه تفضيل تلك القلوب على الحجارة في القساوة يعني أن هذه القلوب وإن كانت تشترك مع الحجارة في جنس القسوة إلا أنها تفوقت عليها " لأن الحجارة قد يعتريها التحول عن صلابتها وشدتها بالتفرق والتشقق وهذه القلوب لم تجد فيها محاولة"[3]، فالحجارة تلين وتخشع وقلوبهم لا تلين ولا تخشع.

وهذا الإيحاء الشديد في مكونات الصورة الحسية يفضي إلى الغرض الحجاجي من الصورة وهو التحذير الشديد من الوقوع بالكفر، والحث على لزوم طاعة الرسل صلوات ربي وسلامه عليهم، والمبادرة إلى تمحيص القلوب والامتثال للأمر التكليفي.

وبعد التطرق لأهم الصور الحسية في مدونة الدراسة سيقف البحث عند أهم خصائصها في المبحث التالي.

---

(١) سورة البقرة: آية ٧٤.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٥٦٣/١.

(٣) المرجع السابق، ٥٦٤/١.

المبحث الخامس

خصائص الصورة الحسية

وبما أن آيات الكفر والإيمان في سورة البقرة جزء لا يتجزأ من آيات القرآن الكريم كان لزامًا على البحث أن يعرج على بعض المعالم الأساس لخصائص الصورة الحسية.

-إن الغاية الحجاجية من الصورة في آيات الكفر والإيمان في سورة البقرة هي إبرار المعاني الذهنية المبهمة والحقائق الفكرية المجردة في صورة محسوسة تجعل المتخيل كأنه مشاهد وترفع الستار عن الحقيقة فيستطيع العقل إدراكها وتصورها بشكل واضح مقنع.

-إذا كانت الدراسات الحجاجية الحديثة أخرجت الصورة الجمالية ذات الزخرف اللفظي من كنف الحجاج فإن الصورة الحسية القرآنية الجمالية ذات هدف حجاجي مقنع يسعى إلى تغيير في موقف عقدي أو فكري أو عاطفي أو معالجة وضع قائم، أو تفسير حقيقة يجهلها المتلقي أو غير ذلك من المفاهيم التي تستدعي صورة بعينها.

-لئن كانت الصورة عند الأدباء والبلغاء تعد ضربًا من الخيال يشكل انحرافا عن الحقيقة فإن الصورة القرآنية لا تنفك عن الحقيقة يمتزج فيها الخيال مع اليقين وهي بالأصح ماهي إلا وسيلة مساعدة لنقل المعنى في قالب جمالي مثير للحواس وذات قدرة فعّاله على التأثير والإقناع.

-أن الصورة الحسية ذات فاعلية من الناحية الحجاجية لأنها تجعل المعقول محسوس والخفي جلي والغائب مشاهد فالذي يدرك عن طريق الحواس يكون أوضح وأبهى يستطيع العقل استيعابه فيتمكن منه خير تمكن فيصل حد الثقة التي تدفع إلى الاستجابة والاقتناع.

-تعد الصورة الحسية القرآنية في مدونة الدراسة وسيلة مهمة لإنتاج المعنى، سخرت عناصر اللغة لخدمة المفاهيم الإسلامية فشرحت حقائق الدين شرحًا حجاجيًا امتزج فيها الجمال بالحق.

-استمد القرآن الكريم الصورة الحسية الحجاجية مما يقع تحت حواس المتلقين في الفضاء الاجتماعي والثقافي ومن عناصر الطبيعة المرتبطة بحياة الإنسان لتكون أقوى في الإقناع وأجدر بالتأثير.

-التصوير البلاغي في القرآن الكريم لا يخضع للتمظهر الحسي فحسب بل يستجيب بفضل غناه ووفرة مادته لأكثر من طريقة ولكن البحث أختار أن ينصب تركيزه على الصور الحجاجية المرتبطة بالحواس لأنها أكبر أثرًا في الإقناع والإفهام بفعل قربها من النفس الإنسانية.

-قد تكون الصورة الحسية بصرية أو سمعية أو شمية أو ذوقية أو لمسية ورد في مدونة الدراسة منها البصرية، والسمعية، والذوقية، واللمسية، وقد تتداخل أكثر من حاسة في الصورة الواحدة ويرتبط تغليب حاسة على أخرى نتيجة تفوقها في تمثيل تصور ذهني معين له قيمته ودلالته في مخيلة المتلقي.

-تضم الصورة الحسية صيغ لغوية وألفاظ حسية تعمل على إنتاج صورة ذات كثافة معنوية مثيرة للمخيلة الإنسانية وليس بالضرورة أن يكون للمعنى علاقة حقيقية بالحاسة التي يعاد إنتاجه بناء عليها وإنما يمكن استخدامها على سبيل المجاز.

الخاتمة

لقد أفضت الدراسة إلى جملة من النتائج، تتعلق في مجملها بحجاجية الصورة الحسية في آيات الإيمان والكفر في سورة البقرة وكيف أنها تتجاوز المعاني السطحية الجمالية إلى معاني ضمنية تستثير المخيلة الحسية بهدف التأثير والإقناع بما يعرض عليها من حجج، ويمكن إيجاز أبرز النتائج التي خلصت إليها الدراسة في النقاط الآتية:

- أظهرت الدراسة أن الصورة وردت في المدونة بناء على علاقتها بالحواس وأشكال تمظهرها الحسي على النحو التالي: صور (بصرية، وسمعية، وذوقية، ولمسية) تنبيهًا إلى دور الحواس في تقريب المعنى واستشعار المتلقي للصورة والتفاعل معها والعمل بما تصبو إليه.
- أثبتت الدراسة أن الصورة القرآنية الموجهة للمؤمن والكافر لا تكون إلا حجاجية وهذا لا يتنافى مع احتفاظها بالجانب البلاغي والجمال اللفظي، فهي تهدف إلى تغيير موقف فكري عقدي أو عاطفي لدى المتلقي.
- أن الصورة الحسية باختلاف أشكالها تهتم بالمتلقي وتدفع به إلى إعمال فكرة ومخيلته ليتمكن المعنى من عقله خير تمكن وبالتالي تدفع به إلى الاقتناع والتأثر بمقصدها وهذا ما تهدف إليه الرسالة المحمدية.
- كشفت الدراسة أن منبع الصور الحسية الحجاجية بيئة المتلقي ومحيطه المعرفي والاجتماعي والثقافية، وبذلك يكون المتلقي طرفًا فعالًا وشريكًا في إنتاج المعنى لارتباط عناصر الصورة مع بيئته وبالتالي اكتشافه لمعاني حجاجية غير مصرح بها تحمله على التجاوب معها بالسلب أو الإيجاب حسب المعطيات الحجاجية المراد إقناعه بها.
- أن تنوع الصور الحسية واختلاف أنماطها في مدونة الدراسة جاء مواكبًا لاختلاف أنماط المخاطبين وتباين توجهاتهم سواء أكانوا حاضرين أو

كونيين وهو ما أدى إلى اختيار حاسة بعينها أو الجمع بين أكثر من حاسة حسب الشريحة المراد توجيه الخطاب إليهم.

- أثبتت الدراسة أن نقل المعاني بصورة حسية في مواطن الترغيب بالإيمان وأهله والترهيب من الكفر وأهله أشعلت الروح الحماسية في قلوب الموحدين المنقادين للدعوة الإسلامية وألجمت المعاندين المكابرين المنكرين لها.
- توصلت الدراسة إلى أن حجاجية الصورة الحسية مزيج بين الإقناع والإمتاع، بالإضافة إلى تميزها بالمرونة والحيوية فهي صاحة لكل زمان ومكان.
- يعد هذا البحث قطرة من بحر المعجزة القرآنية التي لا تفنى عجائبه ولا تنفد دره ولا يدرك إعجازه ليس له نهاية فهو مجال خصب للبحث والدراسة في كل زمان ومكان، بالإضافة إلى وفرة النظريات الحجاجية التي تضم العديد من الآليات والطرائق الصالحة لإقامة الحجة وإزالة الشبة عن العقيدة الصحيحة والفطرة السليمة.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أسرار البلاغة، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ط١، ١٩٩١م.
- بلاغة الإقناع في المناظرة، عبد اللطيف عادل، منشورات ضفاف، بيروت-لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، دار الأمان، الرباط، ط١، ٢٠١٣م.
- البلاغة بين التخييل والتداول، محمد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب، ط٢، ٢٠١٢م.
- البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ماير، محمد علي القارصي، مقال ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إصدار فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف: حمادي صمود، كلية الآداب، منوبة-تونس، ١٩٩٩م.
- التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ط، ١٩٨٤هـ.
- التفسير النفسي للأدب، عز الدين إسماعيل، مكتبة غريب، القاهرة، د.ط، د.ت.
- تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي، تحقيق: د. علي محمود مقلد، منشورا دار مكتبة الحياة، بيروت-لبنان، ط٤، د.ت.
- الحجاج في القرآن من خلال أهم الخصائص الأسلوبية، عبدالله صوله، دار الفارابي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧م.
- الحيوان، لعمر بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، المجمع

العلمي العربي الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٩٦٩م.
- دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ط٣، ١٩٩٢م.
- الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، الولي محمد، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.
- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٣، ١٩٩٢.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: مصطفى حسين أحمد، دار الريان للتراث، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٩٨م.
- اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٦م.
- اللغة والخطاب، عمر أوكان، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، د.ط، ٢٠١٠م.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأبي العباس الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت، د.ط، د.ت.
- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، محمد بن عمر الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

٣- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاتي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.